الباب السابع عشر: في ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر

أما الحجاب، فقد قيل: لا شيء أضيع للمملكة، وأهلك للرعية من شدة الحجاب. وقيل: إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم. وقال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه: مَنْ بالباب؟ فقال: رجل أناخ[1] ناقته الآن، يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ فأذن له أن يدخل. فلما دخل، قال: حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ولي شيئاً من أمور المسلمين، ثم حجب[2] عنه، حجبه الله عنه يوم القيامة». فقال عمر لحاجبه: الزم بيتك، فما رؤي على بابه بعد ذلك حاجب. وكان خالد بن عبد اللَّه القسري يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسي فلا تحجبَنَّ عني أحداً، فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يطلع عليه أحد، أو ريبة يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئاً. وكانت العجم تقول: لا شيء أضيع للمملكة من شدّة حجّاب الملك، ولا شيء أهيب للرعية، وأكف لهم عن الظلم من سهولتهم. وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذي لا يندمل[3]؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرده بغير قضائها. قيل: فما الذي هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له. ووقف عبد اللَّه بن العباس بن الحسن العلوي على باب المأمون يوماً، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق. فقال عبد اللَّه لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانصرفنا. ولو اعتذر إلينا لقبلنا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التعرّف فلا أفهم معناه ثم تمثل بهذا البيت:

وما عن رضى كان الحمارُ مطيتي ... ولكنّ مَنْ يمشي سيرضى بما ركب

ثم انصرف فبلغ ذلك المأمون فضرب الحاجب ضرباً شديداً، وأمر لعبد اللَّه بصلة جزيلة وعشر دوابّ.

قال الشاعر:

رأيت أناساً يُسرعون تبادراً ... إذا فتح البوّاب بابَك إصبعا

ونحن جلوسٌ سكاتون رزانةً[4] ... وحلماً إلى أن يفتحَ الباب أجمعا

ووقف رجل خراساني بباب أبي دلف العجلي حيناً فلم يؤذن له، فكتب رقعةً وتلطف في وصولها إليه وفيها:

إذا كان الكريمُ له حجابٌ ... فما فَضْلُ الكريمِ على اللئيمِ

فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريمُ قليلَ مالِ ... ولم يعذر تعلَّلَ بالحجابِ

---

(١) أناخ: أبرك ناقته.

(٢) حجب: منع.

(٣) يندمل: يبرأ ويشفى.

(٤) الرزانة: الاتزان والتعقل.

وأبـــوابُ الملـــوكِ محجَّبَـــاتٌ فـــلا تستنكـــرَنْ حِجـــابَ بـــابـــي

ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم:

ســأهجـركـم حتـى يليـنَ حجـابُكـم علـى أنـه لا بـدَّ سـوف يليـنُ
خـذوا حـذركـم مـن صفـوةِ الـدهـرِ إنهـا وإنْ لـم تكـن خـانَـتْ فسـوف تخـونُ

وقال آخر:

مـــاذا علـــى بـــوَّاب داركُـــمُ الـــذي لـــم يُعْطنـــا إذنـــاً ولا يستـــأذنُ
لـــو ردَّنـــا ردّاً جميـــلاً عنكـــم أو كـان يـدفَـعُ بـالتـي هـي أحسـنُ

وقال آخر:

أمـرتَ بـالتسهيـل فـي الإذن لـي ولـم يـر الحـاجـب أن يـأذنـا
فلـن تـرانـي بعـدهـا عـائـداً ولـن تـراه بَعْـدُ مستـأذنـا

وقال آخر:

ولقـد رأيـتُ ببـابِ دارِك جفـوةً فيهـا لحسـنِ صنيعِـكَ التكـديـرُ(١)
مـا بـالُ دارِكَ حيـن تـدخـل جنـة وببـابِ دارِكَ منكـرٌ ونكيـرُ

وقال آخر:

إذا جئـتُ ألقـى عنـد بـابـك حـاجبـاً محيـاهُ مـن فَـرْطِ الجهـالـةِ حـالـكُ
ومـن عجـبِ مغنـاك جنـة قـاصـدٍ وحـاجبُهـا مـن دون رِضـوان مـالـكُ

وقال آخر:

سـأتـركُ بـابـاً أنـتَ تملـكُ إذنَـهُ ولـو كنـتُ أعمـى عـن جميـع المسالـكِ
فلـو كنـتَ بـوّاب الجنـان تـركتُهـا وحـوَّلْـتُ رجلـي مسـرعـاً نحـو مـالـكِ

وقال آخر:

مـــاذا يفيـــدُك أن تكـــونَ محجَّبـــاً والعبـــدُ بـــالبـــابِ الكـــريـــم يلـــوذُ
مـا أنـتَ إلا فـي الحصـارِ معـي فـلا تتْعَـبْ فكـلُ محـاصَـرٍ مـأخـوذُ

وقال أبو تمام:

سـأتـركُ هـذا البـاب مـا دام إذنـه علـى مـا أرى حتـى يليـن قليـلا
فمـا خـاب مَـنْ لـم يـأتِـهِ متعمـداً ولا فـاز مَـنْ قـد نـال منـه وُصُـولا
إذا لـم نجـد لـلإذن عنـدك مـوضعـاً وجَـدْنـا إلـى تَـرْكِ المجـيء سَبيـلا

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب: قال له: إن الكرى(٢) قد خطب إليَّ نفسي، وإنما هي

(١) التكدير: التعكير والتشويه.
(٢) الكرى: النعاس.

هجعة[١] وأهبُّ[٢]. فخرج الحاجب فقال له الرجل: ما الذي قال لك؟ قال: قال كلاماً لا أفهمه وهو يريد أن يأذن لك. وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة إذنه، وبذل طعامه. وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسألة إلا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسألته». وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال:

سأصبر إن جفوت فكم صبرنا ... لمثلك من أميرٍ أو وزيرِ
رجَوْناهُم فلما أخلفُونَا[٣] ... تمادَتْ فيهم غِيرُ الدهورِ[٤]
فبتنا بالسلامة وهي غنمٌ ... وباتوا في المحابس والقبورِ
ولما لم نَنَلْ منهم سروراً ... رأينا فيهم كلَّ السرورِ

وأنشدوا في ذلك أيضاً:

قل للذين تحجبوا عن راغبٍ ... بمنازلٍ من دونها الحجَّابُ
إن حَالَ عن لقياكُمُ بوّابكم ... فالله ليس لبابِهِ بوّابُ

واستأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه، فهتف بالبكاء. فأتى إليه الناس وفيهم كعب، فقال: وما يبكيك يا سعد؟ فقال: وما لي لا أبكي وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة. فقال كعب: لا تبكِ فإنَّ في الجنة قصراً من ذهب يقال له عدن، أهله الصدّيقون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله. واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لئيم فحجبه فقال:

في كلِّ يومٍ لي ببابك وقفةٌ ... أطوي إليه سائرَ الأبواب
وإذا حضرتُ رغبتُ عنك فإنه ... ذنبٌ عقوبتُهُ على البواب

وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم: فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام: **﴿يا داود إنّا جعلناك خليفةً في الأرضِ فَاحْكُمْ بين الناسِ بالحقِّ ولا تتّبعِ الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يومَ الحساب﴾**[٥] جاء في التفسير أن من اتّباع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتودّ أن يكون الحق للذي في قلبك حبه خاصة، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الذي أصاب سليمان ابن داود عليهما السلام، أن ناساً من أهل جرادة امرأته، وكانت من أكرم نسائه عليه، تحاكموا إليه من غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضي لهم، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحداً. وروي عن عبد الرحمٰن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمٰن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وأن أعطيتها من مسألة وكلت إليها». وقال معقل بن يسار رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ

---

(١) هجعة: رقدة.
(٢) أهبُّ: أستيقظ.
(٣) أخلفوا: نقضوا عهودهم.
(٤) غير الدهور: تقلبات الأزمان.
(٥) سورة: صٓ، الآية: ٢٦.

يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحيته، ألا لم يجد رائحة الجنة» وفي الحديث: «من ولي من أمور المسلمين شيئاً ثم لم يحطها بنصيحته كما يحوط... أهل بيته فليتبوأ مقعده من النار».

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة فأبى، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيقف على جسر جهنم فيأمر الله تعالى الجسر فينتفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه ثم يأمر الله تعالى بالعظام فترجع إلى أماكنها، فإن كان لله مطيعاً أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصياً انخرق به الجسر فهوى به في نار جهنم مقدار سبعين خريفاً» فقال عمر رضي الله عنه: سمعت من النبي ﷺ ما لم أسمع. قال: نعم. وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان: إي والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفاً في وادٍ يلتهب التهاباً، فضرب عمر رضي الله عنه بيده على جبهته وقال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون مَنْ يأخذها بما فيها. فقال سلمان: مَنْ أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض.

وروى أبو داود في السنن قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي عريف على الماء، وإني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده. فقال النبي ﷺ: «العرفاء في النار». وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الإمام الجائر»[١]. وقالت عائشة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في تمرة». وقال الحسن البصري: إن النبي ﷺ دعا عبد الرحمٰن بن سمرة يستعمله فقال: يا رسول الله خرّ[٢] لي، فقال: اقعد في بيتك. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جيء به يوم القيامة مغلولاً[٣]، أنجاه عمله أو أهلكه. وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال سليمان: قل. فقال طاوس: أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه، فجار في حكمه. فاستلقى سليمان على سريره وهو يبكي، فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه.

وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيَّرون إليه في ألواحه، فلم ينظر إليه وقال: هذا حكم لا أتولى حكماً أبداً. وقال أبو بكر بن أبي مريم: حج قوم فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل فقالوا له: دلنا على الماء، فقال: احلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يميناً أنه لم يكن صرافاً، ولا مكاثاً، ولا عريفاً، ويروى ولا عرافاً ولا بريداً، وأنا أدلكم على الماء فحلفوا له ثلاثاً وثلاثين يميناً كما قال فدلهم على الماء. فقالوا له: أعِنَّا على غَسْله. فقال: لا، حتى تحلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يميناً كما تقدم. فحلفوا له، فصلى عليه. ثم التفتوا فلم يجدوا أحداً فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام. وقال أبو ذر رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي وإني أراك ضعيفاً فلا تتأمرن على اثنين ولا تلين[٤] مال يتيم».

ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق، ما حكي أن ملكاً من ملوك الفرس، يقال له أردشير، وكان ذا مملكة

---

(١) الجائر: الظالم.
(٢) خرّ لي: أي اصطف لي.
(٣) مغلولاً: مقيّداً بالسلاسل والأغلال.
(٤) من ولى يلي: تولّى.

متسعة، وجند كثير وكان ذا بأس شديد قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع، وأن هذه البنت بكر ذات خدر، فسير أردشير مَنْ يخطبها من أبيها فامتنع من إجابته ولم يرض بذلك، فعظم ذلك على أردشير وأقسم الأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتلنه هو وابنته شر قتلة، وليمثلن بهما أخبث مثلة. فسار إليه أردشير في جيوشه فقاتله فقتله أردشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل عن ابنته المخطوبة فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسناً وجمالاً وقداً واعتدالاً فبهت أردشير من رؤيته إياها فقالت له: أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني، ملك المدينة الفلانية، وإن الملك الذي قتلته أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه، قبل أن تقتله أنت، وأنه أسرني في جملة الأسرى وأتى بي في هذا القصر فلما رأتني ابنته التي أرسلت تخطبها أحبتني وسألت أباها أن يتركني عندها لتأنس بي، فتركني لها فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحدة، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند أقاربه من الملوك. فقال أردشير: وددت لو أني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة، ثم إنه تأمل الجارية فرآها فائقة في الجمال، فمالت نفسه إليها فأخذها للتسري. وقال: هذه أجنبية من الملك ولا أحنث في يميني بأخذها، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها فحملت منه فلما ظهر عليها الحمل اتفق أنها تحدثت معه يوماً، وقد رأته منشرح الصدر فقالت له: أنت غلبت أبي وأنا غلبتك. فقال لها: ومن أبوك؟ فقالت له: هو ملك من بحر الأردن وأنا ابنته التي خطبتها منه، وإنني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحيلت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك في بطني فلا يتهيأ لك قتلي. فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه، فانتهرها وخرج من عندها مغضباً وعوّل على قتلها.

ثم ذكر لوزيره ما اتفق له معها، فلما رأى الوزير عزمه قوياً على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا، وإنه لا يقبل فيها شفاعة شافع. فقال: أيها الملك، إن الرأي هو الذي خطر لك، والمصلحة هي التي رأيتها أنت، وقَتْلُ هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب، لأنه أحق من أن يقال إن امرأة قهرت رأي الملك وحنثته في يمينه لأجل شهوة النفس. ثم قال: أيها الملك إن صورتها مرحومة، وحمل الملك معها وهي أولى بالستر، ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق. قال له الملك: نِعْمَ ما رأيتَ، خُذْها وغرِّقْها، فأخذها الوزير، ثم خرج بها ليلاً إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتحيَّل إلى أن طرح شيئاً في البحر أوْهَمَ مَنْ كان معه أنها جارية، ثم إنه أخفاها عنده فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه غرَّقها فشكره على ما فعل.

ثم إن الوزير ناول الملك حقاً[1] مختوماً، وقال: أيها الملك، إني نظرت مولدي فرأيت أجلي قد دنا يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم، وإن لي أولاداً، وعندي مال قد ادخرته من نعمتك فخذه إذا متّ إن رأيت، وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فإنه أرثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء اكتسبته منه إلا هذا الجوهر. فقال له الملك: يطوّل الرب في عمرك ومالك لك، ولأولادك سواء كنت حياً أو ميتاً. فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة. فأخذه الملك وأودعه عنده في صندوق.

ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولداً ذكراً جميلاً حسن الخلقة مثل فلقة القمر فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته، فرأى أنه إن اخترع له اسماً وسماه به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا اسم لم

(١) الحُق: وعاء من خشب أو عاج.

يتهيأ له ذلك فسماه (شاه بور) ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك، فإن شاه ملك وبور ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم، وتقديم المتأخر وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذة، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم، فعلّمه كلَّ ما يصلح لأولاد الملوك من الخط، والحكمة، والفروسية وهو يوهم أنه مملوكٌ له اسمه شاه بور إلى أن راهق البلوغ. هذا كله وأردشير ليس له ولد وقد طعن في السن وأقعده الهرم فمرض وأشرف على الموت، فقال للوزير: أيها الوزير قد هرم جسمي وضعفت قوتي وإني أرى أني ميت لا محالة وهذا الملك يأخذه من بعدي من قضي له به فقال الوزير لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولي بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها فقال الملك: لقد ندمت على تغريقها ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكراً، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال: أيها الملك إنها عندي حيّة ولقد وضعت ولداً ذكراً من أحسن الغلمان خَلْقاً وخُلُقاً فقال الملك: أحقٌّ ما تقول؟ فأقسم الوزير أن نعم ثم قال: أيها الملك إن في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب، وفي الوالد روحانية تشهد ببنوة الأبن، لا يكاد ذلك ينخرم أبداً، وإنني سآتي بهذا الغلام بين عشرين غلاماً في سنه وهيئته ولباسه، وكلهم ذوو آباء معروفين خلا هو، وإني سأعطي كل واحد منهم صولجاناً وكرة وآمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورهم، وخلقتهم، وشمائلهم فكلُّ مَنْ مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو. فقال الملك: نعم التدبير الذي قلت.

فأحضرهم الوزير على هذه الصورة، ولعبوا بين يدي الملك فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيبة أن يتقدم ليأخذها إلا شاه بور فإنه كان إذا ضربها جاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذه الهيبة منه. فلاحظ أردشير ذلك منه مراراً فقال له: أيها الغلام ما اسمك؟ قال: شاه بور. فقال له: صدقت، أنت ابني حقاً ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه. فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والداً بحضرة الملك فتحقق الصدق في ذلك. ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنها وجمالها فقبلت يد الملك فرضي عنها. فقال الوزير: أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت إلى إحضار الحق المختوم. فأمر الملك بإحضاره ثم أخذه الوزير، وفك ختمه وفتحه فإذا فيه ذكر الوزير وانثياه[1] مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة. قال: فدهش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة، وشدة مناصحته فزاده سروره، وتضاعف فرحه لصيانة الجارية، وإثبات نسب الولد ولحوقه به. ثم إن الملك عوفي من مرضه الذي كان به، وصح جسمه. ولم يزل يتقلب في نعمه وهو مسرور بابنه إلى أن حضرته الوفاة ورجع المُلك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير، وشاه بور يحفظ مقامه، ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى. والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

---

(١) أنثياه: خصيتاه.